سورة هود

obeikandl.com

# ﴿ سورة هود ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ۝٦ ﴾

فلا تحتاج تلك الدابة إلى مجهود لكى يصل إليها رزقها، فإن الرازق كتب وعليه الإيصال، فلا يجب على من توكل على مولاه حق التوكل أن يضيع وقته فى مجهود الإيصال.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ۝٧ ﴾

لمجاراة عالم الشهادة، وإلا فإنه سبحانه قادر على خلق العالم بكن التنجيزية، فإن الخطاب الإلهى يخاطب المخلوق بما احتواه من القيود الحس فافهم.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ۝٧ ﴾

فيه شرف لذلك الماء ــ الذي خلق منه كل شئ حى ــ أن يحمل عرش الرحمن ثم يستوى الرحمن على عرشه، فظاهر الكلام أن الماء حامل للرحمن وللعرش، وفى آية الحاقة يقول سبحانه: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾.

وحاشاه سبحانه من أن يحمله الحدث كالماء وهؤلاء الثمانية، فإن سبحانه هو القائم بالعالم ولا يقوم به شئ.

ثم إن هناك نكتة إلهية أخرى وهى أن العرش هو الهيكل المحيط بالوجود، فما من خلق إلا وهو منطوٍ منه، وبهذا قال أشياخنا من السادة العارفين بالله، فكيف يحمل العرش الماءُ ؟

وللإجابة على هذا المشكل أقول: اعلم أنه سبحانه قادر على كل شئ، وقادر على حمل الأدنى للأعلى، وقادر على حمل الأضعف للأقوى، فإن حملة العرش الثمانية يستحيل عليهم حمل عرش الرحمن وهو مستوٍ عليه إلا بقدرة إلهية وهبية منه سبحانه لإعطائهم القيام بهذا الحمل.

ثم إن هذا الحامل الضعيف لعرش سيده ومولاه قد مكنه الحق سبحانه من وسع الرحمن فى قلبه، على السموات والأرض من أن تسعه، يقول سبحانه فى الحديث القدسى: (( **ما وسعنى سمائى ولا أرضى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن** )).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴿٢٧﴾ ﴾

ضيعهم النظر إلى بشريته عليه السلام، فظنوا أن كل من خلق الله واحد لا غير، وهو من أبواب المكر الإلهى الخفى، فإنهم لم يتعرفوا إلى حقيقة ذلك الرسول فيسبروا غور بشريته ويتعمقوا إلى ما هو أكثر من بشريته، فيروا فيه حقيقة الإرسال الإلهى له إليهم، ولهذا ما ضاع أبو جهل وأبو لهب ومن أمثالهم إلا عندما نظروا إلى نبينا ﷺ على أنه يتم أبى طالب.

ولذلك قال الصوفية: ثلاثة لا يستفيدون بالشيخ العارف: زوجته وخادمه وولده، وذلك لقربهم من بشريته وكثرة احتكاكهم به، فيهملون فيه الجانب الروحى، وهو الأصل الأعظم فيه.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

فعميت عليكم لاستيلاء الحجاب الظلامى عليكم ولكثافة الروح فيكم، فكيف تلزم الروح بعد استيلاء الظلام عليها بأن ترى سبل الهداية وحقيقة الخطاب الإلهى الموجه إليها ؟

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴿٢٩﴾ ﴾

لا أسألكم أجراً من هذه المادة الحدثية الفانية الزائلة، فهؤلاء العارفون لن يعرفوا سوى الله، فكيف يبيعون حضرة ربهم بالفانى الزائل ؟

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴿٣١﴾ ﴾

فهذه هى أصول الاختبار، أن يبعث فرداً مجرداً ويترك الإعجاز الحقيقى للخالق، فكأنه عليه السلام أراد أن يقول لهم: أنا عبد بشرى والخزائن ومعرفة الغيب من اختصاص الربوبية.

فمن أراد أن يدخل من باب العبودية الصرف عن طريقى فليدخل بلا إغراءات.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾

صفة العلامة الإلهية التنجيزية للفعل الصادر من حضرة الله تعالى.

﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾

لبقاء النوع الإلهى فى الأرض وعدم انقراضه.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

هو إعلام من الربوبية بخرق أسوار النبوة، فلا كبير عليه سبحانه، فهو يفعل فى ملكه ما يشاء وتجرى أحكام علمه القديم على الكل، فلا مانع من أن يكون والد النبى كافراً ولا مانع من أن يكون ابنه كافراً، ولا مانع من خيانة زوجة النبى له كما ورد به القرآن، وهما امرأة نوح وامرأة لوط كما ورد ذلك فى آخر سورة التحريم.

واعلم أن هذا من نوادر العلم الربانى، وهو من مفردات العزة الإلهية وخصائص الغيرة، فلا يقربه أحد.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ

أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

هذا ليعلم الناس فوائد الاستغفار والتوبة، وما يترتب عليهما من عطاء الحق سبحانه نحو زيادة الرزق وهو المعبر عنه بإرسال السماء، ثم إنه أى ــ الاستغفار ــ يزيد المستغفر قوة روحية وجسدية بالإضافة إلى قوته السابقة.

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

للحق سبحانه أن يختبر بما يشاء، وله سبحانه أن يجعل آلة الاختبار ما يشاء، وإن كانت فى نظر المختبرين على أنه شئ تافه حقير، ولذلك تأدب العارفون فلم يروا شيئاً تافهاً فى الكون، بل تحققوا أن الحق سبحانه له حكمة عزيزة فى كل ما أوجده، فأوجد الحق سبحانه الناقة فى طريق هؤلاء القوم، ومن يدرك الحكمة سوى العاملين والعارفين من أولى الألباب، ممن نظروا فى الأكوان بمعيار الحكم الإلهى.

فأوجد الحق سبحانه شجرة القمح لآدم.

وأوجد الناقة لقوم صالح.

وحرم على بنى إسرائيل صيد الحيتان فى يوم السبت.

فكان الاختبار:

بالقمح

والحوت

والناقة

وهى أساليب الحضرة فى إخراج الحق من الباطل ومعرفة الذين صدقوا من الكاذبين.

وحكى أن ذا النون المصرى ﷺ كان له خادم خدمه مدة طويلة فطلب منه أن يعلمه الاسم الأعظم وقال له: خدمتك طويلاً فعلمنيه، فقال له: احمل هذا الصندوق من هذا البر من البحر إلى البر الآخر، فحمله الخادم وركب به سفينة، وفى السفينة حدثته نفسه ما الذى فى داخل الصندوق ؟ وألحت عليه هواجسه، ففتح الصندوق فقفز منه فأر وسقط فى البحر، فرجع إلى ذى النون، فقال له: كيف تطالبنى أن اعلمك الاسم الاعظم وأنا ائتمنتك على فأر فلم تحفظه فكيف ستحفظ الاسم الأعظم ؟ .

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

أى الصوت القاتل، واعلم أن من تجليات الحق سبحانه ما يقتل، وهناك نوع من القنابل تقتل وتهدم بصوتها، وقد تكلمنا فى كتابنا الكبير تكملة الفتوحات المكية فى آخره على القتل بالصوت، واعلم أن النفخ القيومى يحيى ويميت، يقول سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ۖ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاءته بالبشرى لتخفيف الواردات الجلالية عنه، فإن البشرى بالنسبة للعارف هى واردات جمالية لطفية تخفف ما لحق به من قهر، فقابل أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ذلك الوارد اللطفى الجمالى باء كرام أهل الحضرة المبشرين له بتقديمه لهم عجلاً حنيذاً.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخيف الحق سبحانه العارف لكى لا يستمر عجبه بتلك البشرى، حتى يرجعه إلى حياض العبودية الصرفة، يقول سبحانه عز وجل عن هذا المقام فى حق سليمان عليه السلام: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

يخبرنا الحق سبحانه أنه لما ذهب عن إبراهيم الروع والجلال وجاءته البشرى والبشائر الإلهية، ترك كل هذا وأدخل نفسه مرة أخرى فى التكاليف القهرية وذلك بالجدال فى قوم لوط، وهكذا دوماً يهضم العارف الربانى حق نفسه ويدخل نفسه فى قهر جديد بعد خروجه من قهر قديم، وإنما يفعل كل هذا لأجل رحمة الحق سبحانه

للخلق على يد هذا العارف التى تجلت الرحمة الربانية على قلبه، فهو يخاطب ربه بلسان اللطف والتخفيف، ويسأل ربه أن يرحم الخلق به، حتى لو قيل له: ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

وإنما سئ لوط عليه السلام وضاق ذرعاً بالملائكة لورودهم بتكاليف قهرية أوردوها عليه، فهنا يخاف العارف من ورود تلك التكاليف عليه، وتجددها من قبل الحضرة، فإن الروح بطبعها تخاف من كل قهرى جلالى وتخاف من عواقبه.

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾

فدى لوط عليه السلام حضرة ربه بأعز ما يملك وهن بناته فأراد أن يطهر أولئك القوم من الأنجاس فقال لهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فأراد أن يخرجهم من خبث الطينة إلى طهارة الجبلة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾

وهى الطائرات الإلهية، هذا ليعلم العارفون أن الطائرات من مخبآت الحضرة الإلهية، وأنها كانت موجودة قبل هذا بكثير .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴿٨٤﴾

أى إنى أراكم بخير ما لم تحرقوا قوانين الله وتخلوا الميزان الإلهى فى الكون، فإن الأنبياء وكل العارفين يحبوا أن لا يطغى مخلوق فى ذلك الميزان الكونى فيخرجه بنقص أو زيادة بل كما أراده الحق سبحانه، يقول سبحانه: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

أى تلك البقية التى تراها أعينكم قليلة ــ فإنها فى حقيقتها ليست بقليلة بل كثيرة ــ فهى خير لكم، فربما كانت فى القلة البركة، وربما نزعت من الكثرة البركة، ولهذا ورد عنه ﷺ أنه كان يكثر القليل على يديه وينمو ويكفى العدد الكثير من الناس .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴿١١٢﴾ ﴾

طالبه ﷺ بالاستقامة، لكونها من أصعب الأشياء ومن أعز الدرجات، ولذلك طالب العارفون أنفسهم باستمرار الاستقامة وهربوا من ظهور الكرامة، وقالوا: الاستقامة أعظم الكرامة، فإنه لا يكون الكامل كاملاً إلا باستقامة من أول الأمر إلى آخره، فهو العبد الكامل المتحقق بقوله عز وجل: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ولذلك ورد عنه ﷺ أنه قال: (( **شيبتنى هود وأخواتها**)) فقيل له ﷺ: وما شيبك منها؟

قال: قوله تعالى: ﴿ **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** ﴾.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴿١١٦﴾ ﴾

وهم أهل المعرفة والاتصال العلوى، الذين كانت لهم بقية من الذب عن الله ونشر المعروف والنهى عن المنكر، وأخبر عنهم سيدنا محمد ﷺ بقوله: (( **لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة** ))، وكان من أقطاب هذا المقام سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يوم الردة وأحمد بن حنبل فى يوم المحنة.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾ ﴾

قال الحسن البصرى ﷺ :أى وللاختلاف خلقهم .

وقال ابن وهب سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وقد اختار هذا القول ابن جرير الطبرى وأبو عبيد الفراء .